حكايات إسبانية عربية الأصل :
"مبادلة الحمار لتورميدا"

إعداد: توفيق السّبعي
مراجعة: أحمد الحمروني
تونس

المؤلّــف :

عرف هذا الرّجل من خلال النّصوص الأندلسية المتأخرة بالفرايلي أنْسيلمو دي تورميدا. ولفظة "فرايلي" هي الصيغة العربية المتولّدة عن لفظة "فرايل" (Fraile) الإسبانية، ومعناها الأخ. وهذا لقب لبعض رجال الدين النّصارى، مثل اللفظ أو اللقب الفرنسي "فرار" (Frère).

وقد احتلّ أدب هذا الرّجل مكانة مرموقة في الأدب الإسباني والكطالوني.

ولد تورميدا (F.A.Turmeda) في بلدة ميورقة [1] سنة 1352/753، ودرس في لاردة [2]. ثم انتقل إلى جامعة بولونيا الإيطالية، وأخيرا هاجر إلى تونس مرتدّا عن المسيحيّة إلى الإسلام، متسمّيا بعبد الله ، ومعروفا "بالترجمان" لامتهانه الترجمة بسبب حذقه اللغة العربية.

ولاّه السّلطان الحفصي أبو العباس أحمد (ت 796/ 1393) مُكوس تونس (إدارة الديوانة)، فظلّ فيها – محظيا بالتقدير مجلّلا بالقداسة – مدّة ابنه وخلفه أبي فارس عبد

(1) ميورقة (Majorque) ،ويسمّيها الإسبان (Palma de Mallorca)، هي أكبر جزر الباليار، شرقيّ إسبانيا بالبحر الأبيض المتوسّط.
(2) لاردة (Lerida) مدينة أندلسية بالجنوب الشّرقي لإسبانيا، بين برشلونة وسرقسطة.

العزيـــز (ت837/ 1433) إلى تاريخ وفاته سنة 823/ 1420، على الأرجح [3].

مؤلّفـــاته :

يذكر المستعرب الإسباني أنجال غونثالث بالنثيا[4] أنّ كتاب عبد الله الترجمان المسمّى "تحفة الأريب في الردّ على أهل الصّليب" قد ذاع بين المسلمين ذيوعا عظيما[5].وقد اعتمد في تأليفه على ما أورده ابن حزم الأندلسي(ت456/1063) في كتابه "الفصل في الملل والأهواء والنّحل"[6]الطّافح بالحجج في مناقشته لآراء النصارى بالخصوص.

وألّف تورميدا باللغة الكطالونية كتاب "التعاليم الصالحة" (Libro de bons ensenyments) [7] وكتاب "رباعيات مملكة ميورقة" (Cobles del regne de Mallorca)

(3) تاريخ وفاته مختلف فيه وهو عند آخرين 1422/826. وقبره بتونس معروف بسيدي تحفة- نسبة إلى كتابه المشهور "تحفة الأريب في الردّ على أهل الصّليب"- عند مدخل سوق السّراجين. وقد رمّمته بلدية ميورقة بحجارة مجلوبة من موطنه تكريما له. راجع ترجمته في : كحّالة: معجم المؤلّفين 78/4، محفوظ: تراجم المؤلّفين التونسيين 225/1-231، النيفر (محمد الشادلي): مجلّة "معالم ومواقع"،ع9، جانفي 2001، ص4- 16، وفيه إشارة إلى النّقل عن إخوان الصفا من رسائلهم في كتاب تورميدا "مجادلة الحمار" على رأي بالنثيا (أنجال غونثالث) في تاريخ الفكر الأندلسي. تع. حسين مؤنس، مكتبة النهضة العربية، القاهرة 1955 ص 588. وذكر محمد بن الخوجة في : صفحات من تاريخ تونس. تح. ح. الساحلي،ج. بن الحاج يحي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1986،ص360 أن عبد الله الترجمان أسلم على يدي السلطان الحفصي أبي العباس أحمد، وهو الذي زوّجه بابنة الشيخ الحاج محمد الصقّار، وأولاه قيادة البحر (إدارة الديوانة) انظر كذلك :

CALVET (A): Fray Anselmo Turmeda/ heterodosco Espanol.-Barcelone 1914.

De Epalza (M) : L'auteur de la « Tuhfat al-arib…» in : IBLA,n°111,1965, p.261-290

(4) تاريخ الفكر الأندلسي المرجع المذكور، ص588.

(5) ترجم كتاب "التّحفة" إلى التركية سنة 1012/ 1603، والفرنسية والفارسية سنة 1303/ 1885، والألمانية سنة1390/ 1970، والإسبانية سنة 1391/ 1971 بعناية ميكال دي إبلزا، بروما، في 522 صفحة، ثم ترجم إلى الكاطالونية سنة1399/ 1978. أمّا نشرته الأولى فكانت بالعربية سنة1291/ 1874. انظر: فونتان (ج): فهرس تاريخي للمؤلّفات التّونسيّة.بيت الحكمة، قرطاج/ تونس 1986، ص 77، 78.

(6) لذلك الجدل مرجعان، أوّلهما كتاب المستعرب الإسباني آسين بلاثيوس المسمّى "آثار الإسلام" (Huellas del Islam). مدريد 1941، وثانيهما كتاب بروكلمان "تاريخ الأدب العربي" (G.A.L) المجلّد 2 ص 322- 323 ، الملحق 2 ص 352. وعن ابن حزم انظر : ابن عريفة (الطاهر): ابن حزم الظاهري وكتابه "الفصل". دار الحكمة، طرابلس / ليبيا 1996، والمراجع المتعلّقة به في ص 58- 63.

(7) نشره: OLIVAR (M) :Libre de bons amonestaments- Barcelone 1927

(8) ثمّ كتاب "النبوءات" (Las Profecias)، فطار صيتها في كاطالونيا إلى درجة أنّ الكتاب الكاطالوني الأوّل- وهو مجموعة أمثال باللّغة الكطالونيّة- قد ظلّ مستعملا ككتاب مدرسي في أنحاء كطالونيا إلى زمن متأخّر.

وقد ألّف تورميدا كتابه الكطالوني الرابع "مجادلة الحمار" (Disputa del asno) سنة 1414/817، ونشره مرّة بالكطالونيّة وأربع مرّات بالفرنسيّة، ومرّة بالألمانيّة. والعنوان الكامل لهذا الكتاب "مجادلة الحمار لأنسيلمو دي تورميدا" (Disputa del asno contra Fray-Anselmo de Turmeda)، نُشر في المجلّة الإسبانيّة سنة 1911 في المجلّد 24 [9].

الأصل العربي :

عن هذا الكتاب الأخير "المجادلة" قال بالنثيا :" إنّه خرافة شيّقة جدّا، أبطالها وحوارها وأحداثها تدور حول الحيوانات، وتوضع فيها مسألة امتياز الإنسان على العجماوات على أنّها مسألة جدل ونقاش. ويجري الحوار في مجلس يتولّى الحمار الكلام فيه نيابة عن أصناف الحيوانات، ويدحض الحجج التي يدلي بها تورميدا الناطق باسم البشر".

أمّا حجج تورميدا، وهو يحاور الحمار عن تفوّق الإنسان على الحيوان، فهي جمال الإنسان واتّساق تركيبه وكمال حواسّه البدنيّة وقوّة ذاكرته، ثمّ ملكات البشر في الفنون والتّجارة والسّياسة والقدرة على الاستمتاع بالموسيقى وصنوف اللهو. ويؤيّد ذلك كلّه بما أنزله الله له من الشّرائع. وجعل فيها لحم الحيوان غذاء للإنسان.

وتنتشر في ثنايا هذه الحجج أقاصيص بوكاشيّة يستدلّ بها الكاتب أنسيلمو على أنّ الرهبان هم أيضا يقترفون الخطايا.

وهنا يتدخّل بالنثيا قائلا :" وما هذا الكتاب المشهور إلاّ ترجمة، غالبا حرفية، لفقرات من مجادلة الحيوانات لبني آدم الواردة في "رسائل إخوان الصّفا" في الفصلين 132 و 133 [10].

---

(8) نشره كذلك: OLIVAR (M) : Cobles de la divisio del regne de Mallorque -Barcelone 1927

(9) نشر - أيضا - مفردًا في مدريد سنة 1974 في 288 صفحة بالإسبانيّة. ونشره- مرّة أخرى- بالفرنسية في 161 ص LLINARES (Arnand) : Dispute de l'âne- éd.Vrin,Paris 1984 :

(10) إخوان الصّفا: جماعة سريّة فلسفية سياسيّة، نشأت بالبصرة وانتقلت إلى بغداد في ق4/ 10. ضمّن الإخوان - المتكتمون عن أسمائهم- في رسائلهم الإثنتين والخمسين آراءهم في الطّبيعة والفلسفة واللاّهوت، فهي أشبه بموسوعة جامعة بين العلوم والمذاهب، هادفة إلى التوفيق بين الأديان والملل، وخاصّة بين الإسلام والفلسفة اليونانيّة. أهمّها الرّسالة الجامعة المنسوبة إلى الحكيم المجريطي، وفيها الرّياضة والمنطق وما وراء الطبيعة والتصوّف. صيغت رسائلهم في أسلوب أدبي ميسور على أفهام العامّة بالتّشبيهات والأمثال، وموضوع رسالتهم الثانية والعشرين (أو الثامنة من الجزء الثاني) دراسة قصيرة في علم الحيوان.

وقد قال حسين مؤنس- معرّب كتاب بالنثيا- :"إن مجادلة الحيوانات لبني آدم في كتاب "مجادلة الحمار للأب تورميدا" وردت في فصول عديدة من "رسائل إخوان الصفّا" (11)... وأوّلها فصل في تصانيف أحوال الطيور وأوقات هيجانها وسفادها، وكيفيّة اتّخاذها أعشاشها وإصلاح أوكارها، وكميّة بيضها ومدّة حضانتها وكيفيّة تربيتها لأولادها. وهناك فصول بلا عنوان، غير أنّ ميقال آسين بلاثيوس (Miguel Asin Palacios) قد اختار لها كلّها عنوان "فصل في بيان شكاية الحيوان من جور الإنسان" (Disputa o reclamación de los animales contra al hombre)، وعن هذا الفصل اقتبس وترجم الأخ تورميدا في تصنيف كتابه "مجادلة الحمار..."(12).

وقد أضيف إلى هذه الرسالة حاشية طويلة قال عنها بلاثيوس:"... تُعرض فيها أمام بيراست الحكيم، ملك الجنّ، شكايةٌ تقدّمت بها العجماوات، تشكو فيها استبعاد البشر إياها وإذلالهم لها بحجّة أنّهم ممتازون عليها... وأمام هذا الاتّهام تتقدّم كلّ أمّة من الناس وكلّ شعب وكلّ ملّة، فتدلي بما تؤيّد به امتيازها على الحيوانات، وتقوم العجماوات بنقض تلك الحجج ودحضها واحدة بعد أخرى".

وهنا لاحظ المستشرقون الإسبان أنّ فكرة هذه الخرافة الواردة في كتاب تورميدا - أعني "المجادلة"- هي بالذّات نفس الحجج التي نصادفها في الأسطورة العربية ضمن "رسائل إخوان الصفّا" مع تحوير يسير اقتضته ظروف مناخها الأوروبّي لتطابق قالبها الإسباني الجديد.

وفي هذا السياق يقول غنثالث بالنثيا:" إنّ حكاية مجادلة الحمار لتورميدا إن هي إلاّ صورة مطابقة لأصلها من حوار وجدل العجماوات في رسائل إخوان الصفّا. ويقوم حينئذ باستعراض مقارنة مطوّلة بين فقرات من الرّسائل وبين مقابلاتها من "المجادلة" نورد بعضها في هذه العجالة:

جاء في فصل "بيان علّة اختلاف صور الحيوانات" من كلام إخوان الصفّا (ج2 ص180):

" فقال الإنسي لزعيم البهائم: من أين لكم اعتدال القامة واستواء البنية وتناسب الصورة وقد نرى الجمل عظيم الجثة، طويل الرّقبة، صغير الأذنين، قصير الذّنب،ونرى الفيل

(11) ط. خير الدين الزركلي، المكتبة التجارية، القاهرة 1928 ج2 ص 169... وانظر ما يوافقها من ط. بطرس البستاني، دار صادر، بيروت 1957.

(12) تاريخ الفكر الأندلسي، المرجع المذكور. والفصل المشار إليه موجود بنفس العنوان :" فصل في شكاية الحيوان من جور الإنس" في : رسائل إخوان الصفّا- ط. القاهرة 1928، ج2، ص 182- 187.

عظيم الخلقة، طويل النّابين، واسع الأذنين، صغير العينين، ونرى البقر والجاموس طويل الذنب، غليظ القرون، ليس له أنياب من فوق، ونرى الكبش عظيم القرنين كبير الألْيَة، ليس له لحية، والتيس طويل اللّحية، ليس له ألْيَة، مكشوف العورة، ونرى الأرنب صغير الجثّة كبير الأذنين. وعلى أساس هذا المثال والقياس نجد الحيوانات والسباع والوحوش والطيور والهوام مضطربات البنية ، غير متناسبة الأعضاء"

ويقابل ذلك ما جاء في "المجادلة" (ص 378):

« L'Elephant, ainsi que pouez veoir clairement, a le corps fort grand, les aureilles grandes et larges, et les yeuls petitz. Le chameau grand corps, long col, longues iambes, petites oreilles et la queuë courte. Les Bœufz et Thoreaulx grand poil,longues queuës : et n'ont point de dents aux machoires deuant. Les Moutons grand poil, longue queuë et sans barbe. Les Connilz, combien qu'ilz soient petitz animaulx, ilz ont les aureilles plus grandes que le Chameau, et ainsi, trouuerez plusieurs, et quasi infiniz animaulx tous variables, selon (léase sans) la iuste proportion en leurs membres. » (Sic).

وجاء في "الرسائل" (180/2) :

"قال زعيم البهائم هيهات! ذهب عليك أيّها الإنسيّ أحسنها، وخفي عليك أحكمها. أما علمت أنك لمّا عبت المصنوع فقد عبت الصّانع، أو لا ترى وتعلم بأنّ هذه كلّها مصنوعات البارئ الحكيم؟ ".

وهذا يقابل في كلام تورميدا (بالصّفحة نفسها، 379) :

« Frère Anselme,… ne scachiez que qui meprise aulcune oeuure, ou en dict mal, le mesprisement, ou mal, redunde sur le maistre et autheur de l'oeuure. Vous dictes donc mal du createur, qui les ha créées » (Sic).

كما جاء في "الرّسائل" (180/2):

"قال الإنسي: فخبّرنا أيّها الزّعيم إذا كُنت حكيم البهائم وخطيبها: ما العلّة في طول رقبة الجمل؟ قال: ليكون مناسبا لطول قوامه، لينال الحشيش من الأرض، و يستعين به على النّهوض بحمله، وليبلغ مشفره إلى سائر أطراف بدنه فيحكّها..."

وهذا يقابل ما يقوله تورميدا في "المجادلة" (ص379):

« Le Chameau pour ce qu'il a longues iambes, et fault qu'il viue des herbes de la terre, Dieu tout puissant luy a créé le col long, affin qu'il le puisse baisser

iusques à terre, et qu'il puisse gratter auecq les dents les extremes parties de son corps. » (Sic) .

وقد جاء في "فصل في بيان شكاية الحيوان من جور الإنس" من "الرسائل" (182/2) ما يلي:

" قال الملك للإنسي: قد سمعت الجواب، فهل عندك شيء غير ما ذكرت؟ قال: نعم أيّها الملك، هناك مسائل أُخَر، ومناقب غير ما ذكرت، تدلّ على أنّا أربابٌ وهم عبيدٌ لنا، فمنْ ذلك بيعنا وشراؤنا لها، وإطعامنا وسقيانا لها إذا مرضت ونكسوها ونكفيها من الحرّ والبرد وندفع عنها السّباع أن تفترسها، ونداويها إذا مرضت، وننفق عليها إذا اعتلت، ونعلّمها إذا جهلت، ونخلّيها إذا أعيت، ونعرض عنها إذا جنّت، كلّ ذلك إشفاقا عليها ورحمة لها وتحنّنا عليها. وكلّ ذلك من أفعال الأرباب بعبيدها والموالي بخولها."

وهذا ما يقابل قول تورميدا في "المجادلة" (ص407) :

« Reverendissime Asne, la raison pour prouuer que nous sommes de plus grande noblesse et dignité que vous aultres animaulx, et que par iuste raison nous debuons estre vos Seigneurs, est que nous vous vendons et achaptons, nous vous donnons a manger et a boyre et vous gardons de chault et de froit, des Lyons, et des loups et vous faisons de medecines quand vous estes malades. Faisons tout cela pour la pitié et misericorde que nous auons de vous. Et nul communement exerce telles Oeuures de pytié, si non les Seigneurs a leurs subiectz et esclaues. » (Sic)

وقد وردت المناقشة الكاملة لهذا الموضوع في بحث أسين بلاثيوس بكتابه "آثار الإسلام" (Huellas del Islam) المذكور.

وهنا يقول بالنثيا : " إنّ مجادلة الأخ تورميدا هذه تمدّنا بصورة ناطقة واضحة عن معنى "الملكيّة الأدبيّة" في العصور الوسطى، وعن السهولة التي كان الكتاب يدركون بها الشهرة الأدبية، إذ كان يحصل لهم ذلك بمجرّد أن يترجموا عملا عن العربيّة ترجمة حرفية.